هدى بركات*

ياعيل ليرير: الإسرائيلية ـ الفلسطينية

كانت ياعيل ليرير في الثانية عشرة من عمرها حين قادت أول تظاهرة ضد سلطة مدير المدرسة "غير العادلة"؛ سلطة تجبر البنات على تعلم الخياطة والطبيخ، بينما يتعلم الصبيان المهارات العملية والعالم الخارجي المفتوح. واليوم، لا تزال ياعيل ـ التي ولدت قبل حرب ٦٧ بأشهر قليلة ـ تحمل وجه طفلة على جسد كبير، مكتنز قليلاً، لكن شديد الخفة في مشيه السريع. فياعيل تمشي كثيراً لقدرة هائلة لديها على حب الاستكشاف والتعرف إلى الأحياء والشوارع والناس... هي التي وصلت إلى باريس منذ نحو عامين لتمكث شهراً فقط، ثم قررت البقاء لعدم قدرتها على العودة إلى "هناك" بعد... حرب غزة.

لا يشي سلوك ياعيل ـ لمن يعرفها ـ بتلك الصورة النمطية لشخصية المناضلة، الصارمة دوماً والجدية المنغلقة في وسواس الهمّ السياسي. ويأسها العميق من إمكانات مقاومة "حكومة الاحتلال" ـ كما تسمي الحكومة الإسرائيلية دوماً ـ لا يعني الهدوء برهة من نهارها عن النشاط السياسي بمعناه الأكثر شمولاً وإلحاحاً، والتزاماً أيضاً. وتتآلف في شخصية ياعيل ملامح متناقضة ـ أقله في ظاهرها ـ تجعل تفاؤلها وبشاشتها وطيبتها وتفهمها للآخر المختلف، واستعدادها العميق للحوار، على تنافر مذهل مع شراسة استثنائية ـ جادة وموثقة ـ في اتهام السياسة الإسرائيلية بـ "المجرمة بحق الفلسطينيين" ومحاسبتها. وتبدو فاعليتها الشديدة وقدرتها على المحاججة في المحافل الرسمية، أو في حلقات النقاش في الإعلام الفرنسي حيث يعلو وجهها احمرار الحماسة والألم المكتوم والمثابرة على الاتهام وعدم المهادنة، ويبدو ذلك كله بعيداً عن تلك المرأة الضاحكة باستمرار، والتي تعمل على وصل الناس بعضهم ببعض، في تفاؤل عجيب. وفي النهاية الكل يعرف ياعيل.. الناشطون والمناضلون كما الشغيلة.. المقيمون هنا والعابرون، وكل من ينفذ إلى شبكتها الهائلة على الإنترنت.

* * *

بدأ السؤال، إذاً، باكراً: أين المساواة؟ أو لماذا يغيب العدل؟ وانسحب هذا السؤال على عمر ياعيل ليرير بكامله.

ولدت أم ياعيل في القدس لأب كان يعمل نجار أسرّة، ثم انتقلت عائلة الأم إلى يافا، وتحديداً إلى حي المنشية، حيث استأجرت بيتاً عند مالك عربي. أمّا والد ياعيل، فولد في تل أبيب، لكن أهله أتوا من أوكرانيا. وعمل جدها لوالدها مع الإنجليز ومع العرب في البناء، واستطاع في أربعينيات القرن الماضي أن يشتري سيارة. لكن حين قامت دولة إسرائيل ـ ولأنه لم يكن محازباً ـ خسر كل شيء وهاجر إلى أميركا تاركاً ابنه ـ والد ياعيل ـ ذا الأعوام الخمسة عشر، وحده في تل أبيب. ولأن عائلة أم ياعيل كانت كبيرة انضم إليها الشاب. وتوفي أبو ياعيل وهي في الثانية والعشرين، وكانت لا تعرف عن عائلته إلاّ القليل.

(*) روائية لبنانية مقيمة بباريس.

تعرّفت ياعيل في الرابعة عشرة ـ وفي إطار الكشّاف المدرسي ـ إلى الفقر الحقيقي في أحد أحياء تل أبيب الجنوبية. هل كان السكان من اليهود الشرقيين، أو من العرب؟ ما تتذكره ياعيل هو صدمة الفقر المدقع، هي المقيمة في منطقة متوسطي الحال. كما أنها لا تتذكر تماماً متى التقت فتياناً أو أولاداً عرباً أول مرة ـ ربما في رحلة مدرسية؟ ما تتذكره من فترة المراهقة الأولى هو شعور عميق بالظلم وغياب العدالة.. ثم استنتاج أن لها "امتيازات ما" لأنها يهودية غربية، وذات ملامح أوروبية.

هكذا أتى التحاقها في سنة ١٩٨١ بشبيبة حركة "السلام الآن" طبيعياً في وعيها الاعتراضي الناشئ، وكذلك وقوع مدرستها في منطقة متوسطي الحال، حيث يختلط اليهود، شرقيين وغربيين. لكن، على الرغم من شمولية حركة "السلام الآن" وراديكاليتها أتت حرب إسرائيل على لبنان في سنة ١٩٨٢ لتجعل ياعيل تكتشف الخلاف العميق مع منطق هذه الحركة التي، على الرغم من النقاشات الحادة، لم تطالب بوقف الحرب والانسحاب الفوريّين. ومع يساريين "يشبهونها"، كان نشاطها الأساسي الدعوة إلى التظاهرات وتنظيمها (كان ذلك يتطلب، قبل الإنترنت والبريد الإلكتروني، وقتاً وطاقة هائلين)، لكنها كانت دائماً تخوض نقاشاً اعتراضياً حتى مع مَنْ كانوا يشبهونها من اليساريين.

في التسعينيات، دخلت ياعيل جامعة تل أبيب، ولأنها كانت طالبة متفوقة تابعت برنامجاً دراسياً خاصاً بالمتفوقين يسمح لها بنظام عابر للاختصاصات، فركزت في تنقلها على الفلسفة والتاريخ والعلوم الاجتماعية النظرية. كما أن نشاطها السياسي في حركة "كامبوس" (campus) الطالبية، جعلها في تماس فعلي مع الطلاب اليساريين العرب، وقد ترافق ذلك مع قراءات "جوهرية": ماركس وفرويد والدراسات ما بعد الكولونيالية وأورتيغا وإدوارد سعيد وإميل حبيبي ونوعام تشومسكي، وكانت ياعيل تقرأ كثيراً.

"ميثاق المساواة" كان أول التزاماتها الجدية. وعن هذا الميثاق سينشأ حزب "التجمع الوطني الديمقراطي" الذي ستلتحق به ياعيل ليرير كناشطة في هيئة التأسيس، ثم كناشطة مركزية.

كان "ميثاق المساواة" استجابة لضرورة مطلقة. وحزب "التجمع الوطني الديمقراطي" هو في تكوينه عربي ـ يهودي، يضم في صفوفه نخبة المثقفين: عزمي بشارة، وجمال زحالقة، وميشال فارشافسكي، وأمنون راز ـ كراكوتسكين، ومجموعة "ماتسبن"، ومَن تركوا الحزب الشيوعي، لكن أهم من هذا أن الأغلبية كانت من العرب. ومع أن الأغلبية كانت من العرب، والقيادة كانت عربية، إلاّ إن لغة الاجتماعات والنقاشات والتدوين كانت العبرية!

تقول ياعيل: "لم يكن هناك أي مشكلة، الكل يقرأ ويفكر ويتكلم ويكتب بالعبرية... في لحظة انتبهت إلى خطأ فادح، كان أحد الشبان العرب يتكلم في الاجتماع بعبرية ركيكة وبصعوبة، فرحت أردد في نفسي هناك خطأ فادح، وقررت أن أتعلم العربية."

قرار تعلم العربية وضعته ياعيل موضع التنفيذ حين توقيع اتفاق أوسلو في سنة ١٩٩٣. لماذا في إثر أوسلو؟ "لشدة ما أصبنا باكتئاب"، تقول ياعيل، "كنا في مرحلة نشاط تأسيسي فعال، لم نشارك في الانتخابات، شعرنا بأن منظمة التحرير التي نعمل من أجلها جسداً وروحاً قد خانتنا وباعتنا... هذا الشلل الذي أصابنا دفعني إلى إحدى مدارس تعليم العربية..."

لكن ياعيل ستذهب إلى دراسة جدية وغير مكلفة لتعلم العربية في وسط طبيعي، في القاهرة. ستحاول لمدة شهر، وستغويها جداً سرعة تعلّمها اللغة العربية وسهولة الانتقال من دون تأشيرة عبر الحدود، وسيكون لدافع الإقامة في مكان عربي سعي ياعيل للعمل في القاهرة مراسلة لصحيفة "هآرتس"، وهي التي سبق أن نشرت مقالات عديدة في صحف إسرائيلية، مثل "حداشوت" وغيرها. لكن السلطات المصرية لم تمنحها إجازة عمل، وكان ذلك ممنوعاً في أي حال في الاتجاهين. ومع ذلك أقامت ياعيل في القاهرة عاماً كاملاً.

الإقامة في القاهرة عاماً كانت انفتاح الأفق على العالم، والتواصل الحقيقي مع فلسطين الواسعة.

"بعد أن تعلمتُ العربية بدا أني لم أكن أعرف شيئاً قبل ذلك." ففي القاهرة فلسطينيون قادمون من جميع البلاد العربية، ومن المهاجر الغربية، وفيها شبان عرب ومثقفون مصريون، وفيها يقرأ محمود درويش وتشاهده وتسمعه شخصياً، وستقرأ "لماذا تركت الحصان وحيداً" بالعربية وتبدأ بترجمته إلى العبرية، وستعاود قراءة "ذاكرة للنسيان" بالعربية، وسيتعمق إحساسها التراجيدي بهذا الكتاب الذي تأثرت به كثيراً حين قرأته بالعبرية..

ـ "لو كان لي مورد رزق، أو عمل ما، في القاهرة لربما عشت هناك، أو لربما مكثت فيها أعواماً طويلة وتغيرت حياتي."

ـ "ألم تشعري هناك بالعداء كونك إسرائيلية، في الشارع؟ بين المثقفين؟"

ـ "في الشارع كان حب الاستطلاع لدى المصريين أقوى من مشاعر العداء"، تقول ياعيل، "لكنني، من جهتي، كنت أسارع إلى القول أني ضد حكومتي، ولست إسرائيلية بالمعنى التمثيلي. أمّا في أوساط الفلسطينيين فلم أشعر لحظة بعداء، أو حتى بتحفظ. المصريون، في الواقع، لم تتوطد معرفتي بهم، لم أدخل مثلاً بيت أحد منهم، كنا نلتقي مصادفة مع أصدقاء مشتركين عرباً وأجانب..."

في هذا الجانب تفضل ياعيل عدم الإكثار من الأسئلة. فقد كنت شاهدة على عدائية فظة من مثقفين وكتّاب عرب لمجرد وجود "هذه الإسرائيلية". وكانت ياعيل تبتعد بجرحها كي لا تحرج أحداً، وتبدي تفهماً يصعب تصديقه، فلا تحاول حتى التعريف بمن هي في الحقيقة.

عندما عادت ياعيل إلى إسرائيل دعاها عزمي بشارة إلى العمل في مجال التنظيم والإعلام لدى تأسيس حزب "التجمع الوطني الديمقراطي"، وقد كرست نفسها لهذا الالتزام على طريقة الانصراف الرهباني، وخصوصاً حين وصل أعضاء من الحزب إلى الكنيست الإسرائيلي. هناك كان التماس اليومي ـ ليل نهار ـ مع المعاناة الحقيقية لحياة الفلسطينيين والعرب، فمن مكتب النائب العربي تمر الشكاوى الطاحنة من الاحتلال، ومن الإجراءات العنصرية وتشمل: الأسرى؛ عائلات الأسرى؛ المعتقلين لأعوام من دون محاكمة؛ المرضى؛ هدم البيوت؛ التمييز على المستويات كافة، من المدرسة إلى الشارع إلى العمل. تقول ياعيل: "لم يهدّني التعب، ولم يحملني على اليأس قلة النتائج قياساً بما هو مطلوب وملحّ وقاهر، لكن ما قضى على عملي السياسي المنتظم هو تماسي الدائم مع هذا البرلمان واطلاعي بالضرورة على ما يجري داخله يوماً بيوم وجلسة وراء جلسة وما يُقال داخله. كان هذا فعلاً فوق طاقتي على الاحتمال..."

تركت ياعيل العمل اليومي المنتظم اللصيق بالبرلمان، لكنها لم تترك الحزب، وقامت بتأسيس دار "الأندلس" بهدف تعريف القارئ الإسرائيلي بما يجهله تماماً ـ تبعاً لتربية منهجية تحقّر العرب ـ بأن لدى العرب ثقافة كبيرة وكتّاباً معتبرين ومهمين.

رهنت ياعيل لمشروع "دار الأندلس" طاقتها كلها، واعتبرته جزءاً مهماً وعضوياً من نضالها، وأنفقت ما كانت تملكه من مال وما استطاعت الوصول إليه بالرهن والاستدانة. وتحوّل بيتها الصغير في تل أبيب إلى مكتب "دار الأندلس" ومخزنها، واستطاعت بعناد نادر أن تنجز قائمة مشرّفة على كاتالوغ بديع. وعلى الرغم من تكرر الصدمات جرّاء تجاهل القارئ الإسرائيلي وتمنّعه، فإن ياعيل استمرت في إصدار كتبها الشديدة الإتقان، وصارت زياراتها لباريس تتكرر للقاء الكتّاب العرب ولشراء الكتب العربية ولـ... حتى يئست وأفلست. ففي السباق المحموم بينها وبين "مرض المجتمع الإسرائيلي وانغلاقه وتجذّره في عزلته"، ما عاد هناك مجال للمتابعة، وبدا رهان "دار الأندلس" خاسراً لا محالة.

ذات يوم دعتني صديقتي المخرجة سيمون بيتون، وأعارتني بيتها الباريسي في فترة سفرها للعمل على تصوير فيلمها "راشيل [كوري]"، فتحتُ عيني على إمكان تمضية عام في باريس، أتعلّم فيه الفرنسية، وأستجمع بعض الطاقة، وربما أعانتني منحة ما على كتابة

تجربتي، والأهم على تطوير خبرتي. وبعد ذلك حصلتُ على منحة، وأقمت عاماً حين بدأت الحرب على غزة.

خلال حرب غزة كانت ياعيل موزعة بين شاشة التلفزة والتظاهرات. كتبت العرائض أيضاً، وضمنها واحدة هي الأولى التي يطالب فيها يهود إسرائيليون، فاق عددهم الخمسمئة، بالتدخل الدولي، ولأول مرة أيضاً تُنظم مطالبة بمقاطعة إسرائيل من داخلها. وفي هذا اليأس العارم من "مجتمع يساند ٩٠٪ منه الإجرام القاتل في غزة"، لا تيأس ياعيل؛ هي فقط لا تريد العودة إلى "هناك" لأنها ستجد في باريس فسحة للنضال.

"لماذا لم تأتي إلى موعدنا أمس، ولم تتصلي؟!" تختفي ياعيل يومين، ثم تظهر من جديد.

ياعيل التي تتكلم العربية بطلاقة نادرة ـ باللهجة الفلسطينية طبعاً ـ تشعر بكثير من الفخر حين يقترب منا في المقهى شاب عربي ويحيي "عروبتنا الطليقة"، وتنظر بمزيج من الفخر والحرج متسائلة إن كان ينبغي لها أن تقول مَن هي بالضبط. وبالمناسبة، ماذا تعني ياعيل حين تقول "البلاد"؟ أين "البلاد" هذه ـ رام الله، أو تل أبيب؟

تقول ياعيل: " 'البلاد' هي فلسطين التاريخية، مكان واحد من البحر إلى ضفة الأردن، ويقابلها بالعبرية كلمة 'هآرتس'، أو الأرض. حدود ٦٧ غلطة فكرية." وحين أسألها لو لم تقع حرب ٤٨ لما كان لديك مشكلة إذاً؟ تجيب ياعيل بأن مشكلتها كبيرة جداً مع حرب ٤٨، وأنها مع حق العودة، فهو حق شخصي وإنساني، لكن اليهود لن يعودوا من حيث أتوا منذ ستين عاماً. هذا واقع وستكون نكبة أُخرى. لكن الإسرائيليين الذين هم من أصل بولوني، يطالبون بولونيا اليوم بالتعويض عن أملاكهم التي طُردوا منها. أهم ما في الأمر حقهم في المطالبة، كذلك للفلسطينيين الحق في هذه المطالبة المشروعة سواء أعادوا أم لا. الكارثة أن إسرائيل لم ولن تعترف بهذا الحق. والآن أقاموا مئة جدار دون الفلسطينيين، جدران مادية وقضائية وفكرية وثقافية.

هل تزايد ياعيل؟ هل يبدو منطقها معارضاً لمنطق السلطة الفلسطينية؟ هل هي مثالية الشعراء وإطلاقية الفلاسفة، أم أنها مناضلة "تشتغل" بالسياسة؟

تقول ياعيل إن مشكلتها أقرب إلى أن تكون مشكلة وجودية، "والعمل السياسي المنظم بالمعيار الإسرائيلي مستحيل".

وحين أسألها عن فهمها للمجتمع الإسرائيلي، وعن تفسيرها لاستغراقه في منطقه الانتحاري وتماديه اللاإنساني في الاستخدام الفاشي والعنصري للقوة، وفي... تقول ياعيل أنها لا تفهم، أنها تبحث كثيراً في هذا السؤال، لكنها لا تفهم. وحين أقول لها كيف تشتغلين بالسياسة وتناضلين ضد تأزم مجتمع لا تفهمينه ولا تستطيعين حتى توقّع ردات فعله، تبادرني بالقول: "أنت كتبتِ وتكتبين عن الحرب الأهلية اللبنانية هل فهمتها؟" أجيبها بأنني كتبت الرواية وقلت فيها أني لم أفهم، ولم أعمل لا في النضال ولا في السياسة.

لكن إجابات ياعيل تأتي سهلة و... منطقية: لم يفهم أحد الآلية النازية في عمقها اللاإنساني الفظيع... وحتى اليوم نحاول فهم هذه الآلية الغريبة، هل يعني هذا توقفنا عن مقاومتها، أو استسلامنا لأننا نجهلها؟ هل أنا بحاجة إلى فهم الدافع الإجرامي وراء مذابح بعض القرى العربية في سنة ٤٨ كي أقاوم الصهيونية وما ترتكبه من خلال استخدام ذاكرة المذابح والمحارق ضد اليهود؟

صحيح أن المحارق لم تطل أحداً من أفراد عائلة ياعيل ليرير، إلاّ إن وعيها الإنساني مشبع بالذاكرة اليهودية، فضلاً عما تكفّله التعليم المدرسي من نقل هذا الخزان الشعوري الذي حولته ياعيل إلى حس بالمسؤولية. إنه الظلم نفسه، الذي لا انتماء له، والذي عزز في داخلها كره العنصرية وفتك القوي بالضعيف. واليوم أنا الإسرائيلية، اليهودية، مسؤولة. أنا مَن شردت وقتلت وطردت. أنا مَن أذنبت وعليّ تقع مسؤولية التصحيح والتعويض وردّ الاعتبار والحق.

ـ "هل جعت ياعيل؟"

ـ "قليلاً.."

ـ "تأكلين كبّة نيئة؟"

ـ "أحبها كثيراً. ■